إضاءة

الرسالة الاساسية التي تعكسها عمارة القبّة كانت التفاخر بفتوحات السلطان الظاهر وحروبه ضدّ الفرنجة والارمن وصدّه غزوات المغول، وهي بذلك تتشابه والتمثيلات المعمارية الفسيفسائية التي ظهرت في عمارة اخلافه من السلاطين المماليك احتفالا بانتصاراتهم

ناصر الرباط

تمثّلات العمارة المملوكية ومعانيها

قبّة الظاهر بيبرس في دمشق

ضريح الظاهر بيبرس بدمشق الذي تحوّل إلى المكتبة الظاهرية (Getty)

السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس (حكم بين عامَي 1260 و1276) اسمٌ الهب، وما زال يلهب مخيّلة العرب اليوم وهم يفتشون عن أبطال في تاريخهم المديد يعوّضون شحّ الأبطال المعاصرين ومرارة اللحظة. فهو الوحيد من سلاطين سورية ومصر الذي حظي بسيرة شعبية كاملة متكاملة أصدرها في نشرة محكمة بالفرنسية، ثم بالعربية من خمسة عشر جزءاً، مستعربان فرنسيان هما جورج بوهاس وجان-باتريك غيللوم، بعد أن عملا عليها مع فريقهما لأكثر من عشرين سنة، وقد كان الظاهر بيبرس بطل مسلسل تاريخي سوري أنتج عام 2005، ومثّل شخصيته فيه بحرفية عالية الممثل السوري عابد فهد.

وهو، والحق يقال، يستحق ذلك وأكثر؛ فهو بطل عسكري جسور وجلود وسياسي محنّك قلّ نظيره في زمنه وبعده، فعلى الرغم من أنه اعتلى العرش بعد مشاركته في مؤامرة انتهت باغتيال سيّده السلطان قطز عام 1260، إلا أنه شرّع على الفور عند توليه منصبه بإعادة بناء سلطنة موحّدة ضمّت مصر وسورية الأيوبية كلّها، التي كانت قد دُمرت بعد الهجوم المغولي الكاسح.

وقد تمكن في وقت قصير من تثبيت حكمه وتأمين حدود سلطنته وإبقاء خطوط التجارة مفتوحة من خلال الدخول في سلسلة من التحالفات مع العديد من جيرانه الأقرباء والبعداء مثل بيزنطة، وجنوى، ومغول القبيلة الذهبية في حوض القولغا، وانتهج سياسة الجهاد الدؤوب ضد الدويلات الصليبية الباقية، واسترجع العديد من القلاع والمدن التي سيطرت عليها على الساحل السوري والفلسطيني.

لكن قراره الأكثر ذكاءً وبُعد نظر الذي أضفى من خلاله شرعية إسلامية على نظامه المملوكي الناشئ، إحياؤه للخلافة العباسية في القاهرة، إذ استغل بيبرس تشتّت أفراد الأسرة العباسية الذين نجوا من مذبحة المغول بعد استيلاء هولاكو على بغداد عام 1258 وقتله للخليفة المستعصم بالله، لإحضار أحدهم إلى القاهرة وتنصيبه خليفة للمسلمين بلقب المستنصر بالله الثاني، ثم إجباره على تفويض السلطان بيبرس بكلّ سلطاته السياسية، ونتيجة لذلك ارتفعت أسهمه إسلامياً، وخاصة في مواجهة أعدائه الألداء إيلخانيو المغول في إيران.

رحل الظاهر بيبرس في الأول من تموز/ يوليو عام 1277، في القصر الأبلق الذي بناه في ضاحية دمشق بسبب مضاعفات أعقبت ليلة شرب قميز (حليب الفرس المخمر) أو ربما مات بالسم، ودُفن بسرعة في ضريح بُني على عجل في الغرفة الخارجية لدار اسمها دار العقيقي اشتريت بأمر من ابنه وخليفته بركة خان، رغم أنه كان قد أعد لنفسه ضريحاً في القاهرة ضمن مدرسة أنشأها بمحاذاة مدرسة سيده الصالح نجم الدين أيوب مطلة على القصبة (شارع المعز اليوم). ولكن القبّة التي أمر بها بركة خان لم تكتمل حتى عام 1281، بعد رحيل بركة خان ودفنه مع والده بأمر من المنصور قلاوون، السلطان الجديد الذي اغتصب العرش من نسل بيبرس، ولكنه أكمل مع ذلك بناء الضريح وزخرفته.

هذا الضريح والمدرسة الملحقة به أصبحا المكتبة الظاهرية عام 1877 عندما نجحت ثلّة من علماء دمشق، على رأسهم طاهر الجزائري (1852 – 1920)، في ضمّ محتويات عدد من مجموعات الكتب والمخطوطات الموقوفة في معاهد المدينة لتأسيس أول مكتبة بحثية عمومية.

ضريح بيبرس غرفة مربعة الشكل مغطّاة بقبة على أسطوانة عالية مثمنة الأضلاع ترتكز على أربع حنيات ركنية بسيطة، ورُبِطت جدرانها الأربعة حتى ارتفاع حوالى خمسة أمتار بالرخام الملون والمشكّل هندسياً، بلبه شريط ضيق من زخارف الجص، ويعلوه إفريز من الفسيفساء جُدّد أخيراً بدور حول الجدران الأربعة، حتى إنه يدخل في حنيات أقواس الباب والنوافذ.

وإفريز الفسيفساء هذا هو ما يميز الضريح كلها بالنماذج الأمويّة الفسيفسائية في الجامع الأموي القريب.

> استخدم المماليك الزخرفة والشعر والقصّ لتمجيد فتوحاتهم

> نجحت ثلّة من علماء دمشق بتحويل الضريح إلى مكتبة عمومية

بمادته وموضوعه ومعناه؛ فثلاثة من جوانبه الأربعة تضمّ تشكيلات معمارية من ميان وأبراج وأروقة تتخللها بعض العناصر النباتية، على حين أن الجدار الرابع والأركان الأربعة وإطارات النوافذ الستة تغطيها زخارف نباتية طبيعية ومنمقة ومزهريات وأشجار ولفائف مورقة تذكرنا بالنماذج الأمويّة الفسيفسائية في الجامع الأموي القريب.

المجموعات المعمارية الثلاث المرسومة بالفسيفساء في القبّة الظاهرية مرتبة بشكل متناظر حول مراكز جدرانها، وأكثرها تفصيلاً هو الجدار الجنوبي، أو جدار القبلة، الذي يشغله صفا أبنية متراكبان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجدار الغربي مع اختلاف في طراز الأبنية. أما الجدار الشمالي فوق المدخل، فتتوسّطه شجرة ضخمة نفّذت أغصانها وأوراقها بذات طريقة التظليل التدريجي الموجودة في أشجار الفسيفساء الأموية، ولكن بحرفية أقل وبتشويش للعناصر المعمارية في منظورها وفي تراكبها، ما يوحي بأن معطيات هذا الفنّ القديم ربما كانت قد تدهورت مع مرور الزمن، ولو أنها قطعاً ما زالت حاملة لعبق التراث وهيبة الماضي.

ظهور لوحات الفسيفساء يتكرّر في زخرفة عدد من المباني المملوكية المبكرة في دمشق والقاهرة (خاصة في قلعة القاهرة) والقدس والخليل خلال حكم السلاطين الذين خلفوا بيبرس، المنصور قلاوون (1280-1290) وابنه الأشرف خليل (1290-1293)، ثم سيخفّ ظهورها خلال حكم الناصر محمد ابن قلاوون (1293-1340 مع انقطاعين) لتختفي تماماً بعده.

ولكن ما هي المعاني التي قصدها منفذو هذه المناظر الفسيفسائية المعمارية؟ وكيف راها معاصروهم ورعاتهم؟ وكيف يمكننا قراءتها اليوم في سياق الفترة المملوكية المبكرة؟ الرسالة الأساسية في قبّة الظاهر بيبرس كانت التفاخر بفتوحاته وانخراطه في الحروب ضد الفرنجة والأرمن وصدّه للعديد من غزوات المغول في بلاد الشام وتثبيته للحكم المملوكي على صعيد الجبهة الداخلية، وهي بذلك تتشابه والتمثيلات المعمارية الفسيفسائية الأخرى التي ظهرت في عمارة سلاطين آل قلاوون الثلاثة.

(مؤرّخ معماري مقيم في الولايات المتحدة)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

رسائل الفسيفساء

تمّت استعادة فكرة استخدام التمثيلات المعمارية الفسيفسائية على جدران القبة من نماذجها الاموية كرسائل حول المدى الجغرافي لسيادة السلطان، وهذا التفسير المنطقي ينبع من السياقات السياسية والعسكرية للدولة المملوكية؛ وما فعله المماليك هو إحياء موضوعات الفسيفساء الاموي المعمارية وتطبيقها في مبانيهم لادخال بعد جديد ذي مغزى في الفترة ذاتها التي كانوا فيها يلبّتون حكمهم على الارض في بلاد الشام ومصر.

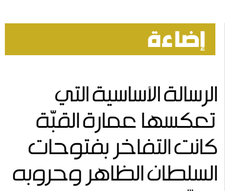

شعر

نُصادقُ الكذبَ رغمَ معرفتنا بحبلِهِ القصير

للذّكرى حبالٌ وضجيجٌ وضحايا

محمود وهبة

أيّها اللّقيطُ اخْلد إلى النّوم؛ اخرُج من اللّوحة؛ اعبرِ الآنَ هذا الفضاء.

■■■

قلتَ مرّةً في رثاءِ صديقك: كانَتْني
شممتُ رائحتَك أو بعثُها للحلّاقي،
كانَتني تبعتُك وانْدثرتُ. تجمّعنا
البارحةَ وكان كلامٌ كثير، عنك وعن
راحلينَ كُثر.
هل كنتَ صادقاً حينها؟

■■■

للذكرى حبالٌ وضجيجٌ وأعداء، للذكرى
ضحايا... كنتُ ضحيّتها الأولى.
للذّكرى يدٌ وأصابع. للذكرى طرقٌ شتى.
للذكرى هذه الفاجعة التي تركتَها في
بيروت. للذكرى كلامٌ وصمتٌ.

■■■

أحاذرُ الدّخول إلى الغرفة. أتركُ للغرقِ
حريّته في أنْ يتصبّبَ من الداخل.

■■■

يضعُ المتردّدُ رِجلاً على الطّاولة، ثم
يسحبُها. يضعُ المُتردّدُ رِجلاً على رِجل،
ثُمّ يُنزلُها.
يضعُ المُتردّدُ قلقَهُ في إناء ثمّ يكرعُهُ.
باختصار، هكذا هي الحال.

■■■

وحيداً انتزَرْهُ على الكورنيش. الظلُّ
الذي اجرّهُ خلفي يُمازحُني:
لستَ وحدَكَ أيّها المرميُّ على عاتقي.

■■■

نضعُ للوقت ملاقط غسيل كي يثبتَ
ولا ينسحب. الوقتُ دائماً بينَ هزّتين.
أولى وأخيرة، وكلاهُما لا أحد.

■■■

الكحلُ في العين يذكّرُني بالبادية،
الفحمُ أسودُ ولادِغ. إنّهُ اليفٌ.
الفحمُ لرسمِ الوجوه وتكسيرِ القبضات
وابتلاعِ الحنجرة.

■■■

قلبُكَ ليسَ هنا. متروكٌ في قارورةٍ على
منضدة. ينسحبُ مثلَ ابتسامةٍ على
وجهي.
قلبُكَ كلمة.

■■■

أخطاءٌ في العنوان. هذه المدينة
طازجة. ثمّة خللٌ في الدّماغ. خطأ في
تركيب المواد العضويّة.
فعلاً إنّها طازجة وموضّبة على الرّف.

■■■

هل تكتبُ قصيدةً كلّ يوم؟
هل تفكّرُ بالقصيدة كواجبٍ مدرسيّ؟

(شاعر من لبنان)

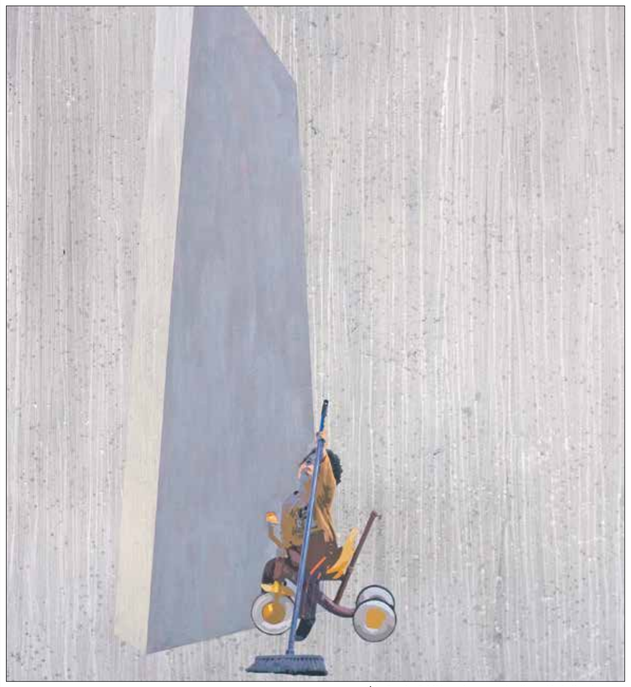

«درس في الطيران»، هاني زعرب، مواد مختلفة على قماش

تمشي المُدُنُ على رؤوس أصابعها
مخافةَ الموت. تعودُ الفتيات أوّل الليل
مخافةَ الشّمعة. تُخفي الموسُ صدرَها
مخافةَ الأدب. تترنّحُ الكأسُ في اليد
مخافةَ السّقوط.

■■■

نُصادقُ الأسئلةَ رغمَ أنّها موجعة.
نُصادقُ الكذبَ رغمَ معرفتنا بحبلِهِ
القصير. نُصادقُ قارئاً حصيفاً رغمَ
بلاهته. نُصادقُ أنفُسَنا رغمَ زلّاتِها
مُرغمين.

■■■

لنُفكّر الآن بأشياء بسيطة، بالكذب
والنميمة وأكل الأظافر، بالمعدة
وتمزّق غشاء البكارة. بالفرص تمرُّ مرّ
السّحاب، وبالمسافاتِ نقطعُها بسرعةٍ
هائمين.
عزيزي، لنفكّر بسهولة ولندَعِ الحياة
تحدُث.

قراءة

ماتياس إينار سردٌ يتّخذ من البيت طريقاً له

ملوكٌ وفِيَلة وشرق وغرب

لاقت روايات الكاتب الفرنسي نجاحاً لافتاً في فرنسا وخارجها، بفضل أسلوبه السرديّ الذي يأخذ من ملامح الشرق ومن ملامح الغرب في الوقت نفسه

عمر أبو سمرة

«حدّثهم عن المعارك والملوك والفِيَلة، لكن إيّاك أن تحدّثهم عن الحبّ»، بهذه الكلمات يُفتتَح الكاتب الفرنسي ماتياس إينار روايته «حدّثهم عن المعارك والملوك والفِيَلة»، يتميّز العمل بلغته وتراكيبه، إضافةً إلى موضوعه، وهذه ميزة أعمال إينار بالمجمل، كما في روايات «البوصلة» و«رُون» و«شارع اللصوص»، التي نُقلت جميعها إلى العربيّة. إنّها لغة تتّخذ من البيت طريقاً دائماً لها؛ لغة دافئة، يغمرها الشوق، وتحمل في طيّاتها سحر الشرق ألف ليلة وليلة وعظمة بروست في توظيف الماضي والحاضر والتنقّل بينهما. في «حدّثهم عن المعارك والملوك والفِيَلة» (صدرت بالإنكليزية عن Fitzcarraldo Editions في لندن ولم تُترجَم إلى العربية بعْد)، يقودنا إينار في رحلة شائقة ما بين إيطاليا والسلطنة العثمانية، ويحكي لنا قصّة ميكيلانجيلو عندما تلقّى دعوة رسميّة من السلطان بايزيد الثاني لرغبته في بناء جسر فوق خليج القَرن الذهبي، الواقع في إسطنبول اليوم. نرافق ميكيلانجيلو في رحلته التي تمتدّ لأكثر من ثلاثة أشهر في القسطنطينيّة، ويوظّف إينار الفصول بشكلٍ سلِس وسهْل للقراءة، في سردٍ ممتلئ بالتاريخ، هو مزيج بين الشرق والغرب. نصّه النثري يتقدّم وفق إيقاع شعريّ عميق، وبلغةٍ تُمسك بالقارئ ولا تغادره، باعثة الحياة في شخصية الفنّان الإيطالي.

نلاحظ تمكّن إينار من تاريخ المنطقة، حيث يتنقل بين إيطاليا والقسطنطينية ببراعةٍ لافتة. كذلك تُطلعنا الرواية، بدقّة، على مخطّطات ميكيلانجيلو وصور الرخام والمباني والجدران المزخرفة، وعظمة قصر السلطان العثماني. ومثل بقية روايات الكاتب الفرنسي، تبدو «حدّثهم عن المعارك والملوك والفيلة» أشبه بالكولاج، حيث تتجاور، داخل قالب واحد، صورٌ مختلفة المنابع. نقع على الأمر نفسه في «البوصلة»، حيث يحكي عن الشعر والأوبرا والتاريخ والجغرافيا والحبّ والذكريات في فقرة واحدة مكثّفة. تتميّز هذه الرواية الأخيرة عن بقيّة أعماله من حيث المبنى، إذ إنّنا نرافق بطلها، فرانز ريتر، في طوافه العالَم، شرقاً وغرباً، عبر ذكرياته في شقّته في فيينا.

> تشكّل روايته الأخيرة استثناءً، حيث تجري كاملةً في فرنسا

لاقت روايات الكاتب الفرنسي نجاحاً لافتاً في فرنسا وخارجها، بفضل أسلوبه السرديّ، الذي يأخذ من ملامح الشرق ومن ملامح الغرب في الوقت نفسه. ففي «البوصلة» (جائزة «غونكور» الفرنسية لعام 2015)، نستطيع أن نُصغي إلى طرب أم كلثوم خارجاً من الصفحات، وإلى صوت إديت بياف الأنيق، ونرى إسطنبول وجامع السلطان أحمد وأبا صوفيا، ونمشي في شوارع آخرين عنها أورهان باموك وجمال ثريا، ونسمع أصوات الليل. ليس ماتياس إينار بحاجةٍ لإثبات قدراته في ما يخصّ تاريخ المنطقة وموسيقاها، اللذين يعود إليهما في كلّ عمل جديد. ويعرف أيضاً بعضاً من لغاتها، هو الذي درس العربية والفارسية في «معهد اللغات والحضارات الشرقية» في باريس. ربما كانت روايته الأخيرة، «المأدبة السنوية لأخوية حفّاري القبور»، الصادرة بالفرنسية حديثاً (لم تُترجم، بعد، لا إلى العربية ولا إلى الإنكليزية)، استثناءً وحيداً في مسيرته، حيث يبتعد عن عوالمه التي تعوّدناها، بين سورية وتركيا وإيران، ليتناول حكاية تجري في مسقط رأسه، إقليم دو سيفر، غرب فرنسا.

(كاتب من فلسطين)

ماتياس إينار في سان مالو، فرنسا، 2009 (Getty)

فعاليات

حتى نهاية حزيران/ يونيو المقبل، يتواصل المعرض الاستعادي للفنان التشكيلي المغربي **عباس صلادي** (1950-1992) في **متحف بنك المغرب المركزي** بالرباط، والذي افتتح في الثامن عشر من الشهر الجاري. يضمّ المعرض ستين عملاً لم تُعرض من قبل تمثّل المرحلة الأخيرة من حياته، إلى جانب أرشيفات صوتية وصور فوتوغرافية له.

التقاييد المصاحبة وآفاق البحث العلمي في المخطوطات عنوان المحاضرة التي يلقيها الباحث المغربي **مصطفى الطوبي** عبر منصة «ميكروسوفت تيمز»، عند السادسة من مساء غدٍ الأحد، بتنظيم من «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة. تتناول المحاضرة الكتابات التي كُتبت في طُرز الكتب وهوامشها، وهي ليست من طُلب النص، مثل تقاييد الشراء، والتملُّكات، والتحبيسات (الوقفيات).

يعرض «مركز خليل السكاكيني الثقافي» في رام الله، عند الخامسة من مساء بعد غد، فيلم **برّه في الشارع** (2015) للمخرج المصري **فيليب رزق**. يتناول الفيلم ضاحية حلوان في مصر من خلال عشر شخصيات تمثّل الطبقة العاملة التي تتكوّن منها غالبية الحيّ؛ حيث يروون قصص استغلالهم والفساد في المصانع التي يعملون فيها.

يتواصل حتى الحادي عشر من الشهر المقبل معرض «ثلاثية نحت: وجوه في الطبيعة» في **اتيليه العرب للثقافة والفنون** (خالِيري ضي) بالقاهرة، والذي افتتح في العشرين من الشهر الجاري. يضمّ المعرض ثلاثة وتسعين عملاً للفنانتين التشكيليتين **خالدة عز الدين حمودة** و**آلاء نجم** (الصورة) والنحّات **باهر ابو بكر**.